الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

أما بعد..

يقول الحافظ المنذري رحمه الله

٨- [روى أبو مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

" الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملآ ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو حجة عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " أخرجه مسلم . واسم أبي مالك عمرو ويقال عبيد ويقال كعب]

الشرح..

هذا الحديث حديث أبي مالك أخر حديث ساقه المصنف فيما جاء في فضل الصلاة وهو حديث عظيم جمع أمورا عديدة وهو معدود في جملة جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم بل هو من أجمع الأحاديث في فضائل الأعمال حيث ذكر فيه أعمال متنوعة وعبادات متنوعة مع ذكر الفضيلة لكل منها فهو حديث جامع في هذا الباب – باب فضائل الأعمال – فذكر فيه فضل الطهارة وفضل الصلاة وفضل الصدقة وفضل الصبر إلى غير ذلك مما جمع في الحديث من فضائل

في قوله [الطهور شطر الإيمان] والمراد بالطهور أي توحيد الله وإخلاص الدين له والخلوص من الشرك في قول لأهل العلم في معناه

ومعنى الطهور شطر الإيمان أي أن التوحيد والبراءة من الشرك والتطهر من الشرك وأدرانه شطر الإيمان ؛ لأن الإيمان والعمل والعبادة لا تقبل إلا بهذا الشطر فمن لم تقم أعماله وعباداته على توحيد الله

والاخلاص له لم تقبل له طاعة ولم يقبل له عمل قال تعالى [ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين]

وقيل الطهور شطر الإيمان وهو الأقرب أي الوَضوء الطهارة للصلاة ويقوي ذلك أن الحديث ورد في بعض ألفاظه عند الترمذي وغيره بلفظ الوضوء شطر الإيمان والمراد بالإيمان الصلاة [وما كان الله ليضيع إيمانكم] أي صلاتكم والوضوء شطر الصلاة لأن الصلاة لا تقبل إلا بوضوء ولا صلاة لمن لا وضوء له ..

فصلاة بغير وضوء غير مقبولة وعبادة بغير توحيد غير مقبولة فالحاصل الطهور شطر الإيمان قولان لأهل العلم والأقرب هو الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به ويمكن أن يؤخذ من المعنيين فائدة يشير إليها أهل العلم في تقرير التوحيد وبيان مكانته في العبادات كلها فشأن التوحيد والبراءة من الشرك في العبادات كلها كشأن الطهارة في الصلاة فكما أن الصلاة لا تقبل بدون طهارة ويصح أن يقال في حق من صلى بدون طهارة إنه لم يُصل ولو فعل أركانها من ركوع وسجود لأن شرط الصلاة الذي لا تقبل إلا به لم يأت به ..

مثله تماماً من يعبد الله الله بدون توحيد يصح أن يقال عنه إنه لم يعبد الله وليس عبداً لله لأنه لا يكون المرء عبداً لله إلا اذا أخلص العبادة لله فعبادة بلا توحيد كصلاة بلا طهارة . مثل الذي يعبد الله ولم يخلص دينه له كمثل الذي يصلّي بدون طهارة فكما أن صلاة المصلّي بدون طهارة غير مقبولة فعبادة الله بدون توحيد غير مقبولة

فالله لا يقبل العبادة إلا بالتوحيد [ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد] أي أخلص عبادتك ودينك لله ولا تشرك في العبادة .

قال [والحمد لله تملأ الميزان]

هذا فيه ثواب العبد والاستكثار من الحمد وأن هذه الكلمة المباركة تملأ الميزان أي ميزان الحسنات لأن العبد يوم القيامة ينصب له ميزان له كفتان كفة توضع فيها حسناته وكفة توضع فيها سيئاته والحمد لله تملا الميزان وهذا فيه ثقل هذه الكلمة في الوزن يوم القيامة وأن من شأنها أنها تملأ الميزان

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم] فالحمد ثقيل في الميزان يملأ الميزان وهذا حث على الاستكثار من حمد الله وأن يحرص المسلم على أن يحمد الله بكثرة فإن هذه الكلمة العظيمة تملأ الميزان

والحمد ثناء على الله وإثبات الكمال له فمعنى الحمد لله أي أثني عليه بما هو أهله والله يحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العليا ويحمد على نعمه المتوالية وآلائه المتوالية ونعمه الّتي لا تحصى (وما بكم من نعمة فمن الله)

قال [وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملآ ما بين السماوات والأرض]

هاتان الكلمتان كثير ما يقرن في النصوص بينهما إما بهذه الصفة سبحان الله والحمد لله أو سبحان الله وبحمده فكثيراً ما يقرن بين التسبيح والتحميد ..

سبحان الله وبحمده أي أسبح الله حال كوني حامدا له مثنياً عليه جامعاً بين تسبيحه الذي هو التنزيه وحمده الذي هو الثناء عليه جل في علاه .

وعرفنا أن التسبيح تنزيه الله والحمد الثناء على الله بإثبات الكمال له فعرف أن الجمع بينهما جمع بين التنزيه للرب عما لا يليق به من النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات والحمد إثبات للكمال إثبات لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا وأفعاله العظيمة ومننه وعرفنا أنه يحمد على نعمه وآلائه ويحمد على أسمائه وصفاته

فالحمد فيه إثبات الكمال والتنزيه فيه تبرئة الله عن كل مالا يليق به ففي الجمع بينهما جمع بين الإثبات والتنزيه وعلى هذين يقوم المعتقد السليم في باب الأسماء والصفات إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل على حد قوله تعالى [ليس كمثله شي وهو السميع البصير]

قوله [تملآن] أي هما معاً وقوله [تملأ] هذا شك من الراوي تملأ يعني كل واحد منهما ما بين السماء والأرض .

قوله [والصلاة نور]

هذا موضع الشاهد من الحديث ومعنى نور يعني ضياء لصاحبها تنير قلبه وتنير وجهه وقبره وطريقه فهي نور وضياء وكلما عظم حظ العبد من هذه الصلاة عظم حظه من هذا النور ولهذا جاء في الحديث الأخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وقد ذكرت الصلاة عند والحديث في المسند بسندٍ جيد [من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة] فالصلاة نور لصاحبها في حياته وقبره ونور في حشره ويوم لقاء ربه واذا قسمت الأنوار يوم القيامة على العباد قال تعالى [يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ] فاذا قسمت الأنوار يوم القيامة كان أصحاب الصلاة أهل النصيب الأوفر لان الصلاة نور للعبد في قبره وحياته ويوم لقاء ربه وهي ضياء لوجه وهذا يدلنا على فضيلة عظيمة في الصلاة

ولما كانت الصلاة نوراً شرع لمن خرج لآدائها أن يسأل الله النور كما ثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم في خروجه الى الفجر ومن أهل العلم من قال يقال في كل صلاة [اللّهم اجعل في قلبي نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نورا واجعل من أمامي نورا واجعل من خلفي نورا واجعل عن يميني نورا واجعل عن يساري نورا] يقول ذلك وهو خارج الى الصلاة خارج الى النور لأن الصلاة نور فيدعو الله أن يعظم له الحظ من النور في كل أجزاءه ومن كل جهة أمام ويمين ويسار وكل أجزائه سمعي وبصري وفي بعض الروايات شعري وعصبي فيكون النور محيط به من كل جانب لان الصلاة نور فالذاهب اليها سائل الله أن يعظم له النور فلما قيل هذا الدعاء بمناسبة الخروج إلى الصلاة و الصلاة نور ناسب أن يسأل الله النور من كل جهاته وفي جميع أجزائه.

قال [والصدقة برهان]

أي برهان على صحة الإيمان وقوته وصلاح العبد وقوة إقباله على الله لأن المال غالٍ عند صاحبه فإخراجه بنفس سخية وهذا من وقاية الشح للنفس [ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] وهو أيضا برهان وعلامة على صدق المرء في تقربه وإيمانه لأن هذا المال الغالي عنده يخرجه ولا يبالي بل يبتغي وجه الله.

قال[والصبر ضياء]

الصبر ضياء لصاحبه في سيره وطريقه وهذ الصبر يحتاج اليه العبد في جميع أموره ولهذا الصبر منزلة عظيمة من منازل السائرين تصاحب المسلم في كل أحواله **لأن** الصبر الذي هو حبس النفس يحتاج اليه العبد في باب الطاعات حتى يقوم بها فمن لا صبر عنده لا قدرة عنده على القيام بالطاعات ؛ الصلاة والوضوء والصيام كلها تحتاج إلى صبر ومن لا صبر عنده لا قدرة له على القيام بهذه الأعمال وكذلك المعاصي الذي أمر العبد بتركها كلها تحتاج إلى صبر ، فهو يصبر نفسه عن فعلها يعني يحبس ويمنع نفسه عن فعلها..

فيحتاج مقام الطاعات لصبر للقيام بها وفعلها والمعاصي تحتاج إلى صبر بأن يمنع نفسه والذي ما عنده صبر يغشى الذنوب مباشرة باذن الله صبره يحجزه عن فعل المعاصي ..

كذلك المصائب المؤلمة الذي يصاب بها من موت أو فقد مال أو ولد تحتاج إلى صبر على أقدار الله

فقوله [الصبر ضياء] أي الصبر بأنواعه الثلاثة : الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله والصبر على أقدار الله هذا ضياء لصاحبه وهو مقام عظيم من مقامات الدين العلية وهو عمل قلبي يحتاج إليه العبد في جميع أموره من فعل طاعة أو اجتناب معصية أو ما يكون من العبد حال حصول المصائب

ومعنى [ضياء لصاحبه]

أي يضيء لصاحبه طريق سيره إلى الله ومن المعلوم أن السير يحتاج إلى ضياء حتى يستتم السير يواصل السائر سيره يحتاج إلى ضياء يضيء طريقه فيسلكه على بصيرة.

قال [والقرآن حجة لك أو عليك]

يعني لا يخلو حال العبد مع القرآن من واحدة من الاثنين إما حجة للعبد أوعلى العبد واذا عرف العبد ذلك لابد أن يعرف متى يكون القرآن حجة لك أو حجة عليك حتى يفعل الذي يجعل القرآن حجة له ويترك الذي هو حجة عليه وأحد السلف وهو أخذ من هذا الحديث قال [ما جلس أحد إلى هذا القرآن إلا قام منه إما بزيادة أو بنقصان] واحد يجلس يقرأ القرآن يقوم بزيادة إيمان وآخر يقوم بنقصان

[وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ]

هذا قام بزيادة وهذا قام بنقصان متى يكون القرآن حجة لك أو عليك يعرف جواب هذا السؤال اذا عرفت المقصود بإنزال القرآن قال الحسن البصري " أنزل هذا القرآن ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً "

يعني صنعة عمل من الأعمال فالقرآن أنزل للعمل به من العقائد والمحرمات والتكاليف فيكون المرء من أهله اذا عمل بالقرآن ولهذا في الحديث قال [يؤتى بأهل القرآن الذين يعملون به] فالذي يعمل بالقرآن هو من أهله أما الذي يسمع آيات الله ويقرأها ولا يعمل بها لا يكون من أهلها .

مثلاً لو إنسان قرأ من سورة الحجرات قول الله [يأيها الذين امنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم] قرأها ثم قام وجلس مع رفقائه واغتاب المسلمين الأمر واضح بأن الآية حجة عليه لو قرآها قبل مجلس الغيبة عشرين مرة أو ثلاثين مرة تكون حجة عليه ولو كان يقرأ على شيخ وقال قراءتك متقنة ما عندك خطأ حجة عليه لأن هذه الآية وآيات القران أنزلت ليعمل بها فاذا عمل بها كانت حجة له وإلا كانت حجة عليه قال الله تعالى [الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يومنون به] ومن التلاوة للكتاب العمل بالكتاب لان التلاوة من معانيها العمل [والقمر اذا تلاها] أي أتبعها فمن تلاوة القرآن العمل بالقرآن ومن لم يعمل بالقرآن ليس تالياً للقرآن وإن كان حافظاً له لابد من العمل ..

فأهل القران هم أهل العمل بالقرآن فالقرآن حجة لك أو عليك

كيف يعرف أن القرآن حجة لك أو عليك ؟ يكون بمعرفة مقصود انزال القرآن وأن القرآن ما أنزل لمجرد التلاوة أو السماع فقط بل ليعمل بما جاء به

والله لم يوجب على عباده أن يحفظوا آيات القرآن كلها لكن أوجب العمل به على الجميع فالعمل بالقرآن واجب وهو الذي من أجله أنزل القران فمن عمل بالقرآن كان من أهله ومن لم يعمل به لم يكن من أهله وكان حجة عليه هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم والقرآن حجة لك أو عليك

وبمعنى هذا الحديث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر [إن الله يرفع أقواماً بهذا القرآن ويضع آخرين]

قال [كل الناس يغدو فبائع نفسها فمعتقها أو موبقها]

كل الناس يغدو يعني كل الناس في سير تراهم من الصباح منطلقين كلٌ له طريق .. اذا أصبح انطلق في أمور متنوعة في طرائقه المختلفة لكن هذا الغدو على نوعين : الأول يغدو بائع نفسه على الله يوجد رحمة الله وثوابه لا يعمل العمل إلا ما يرضيه متجنب لكل ما يسخط الله يعني باع نفسه لله وبهذا البيع أعتق نفسه من عقاب الله وسخطه

قوله [فمعتقها] أي أعتقها من القاب وسخط الله فكان من الناجين لأنه بهذا البيع لنفسه على الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي يكون أعتق نفسه من العقاب والعذاب قوله [أو موبقها] يعني موبقها يعني مهلكها أي مهلك نفسه والإهلاك للنفس هو الدخول في الموبقات والموبقات هي المعاصي والذنوب كقوله صلى الله عليه وسلم [اجتنبوا السبع الموبقات] وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك صاحبها

فالناس على صنفين في خروجهم من بيوتهم لطرائقهم المختلفة .. منهم من كان خروجه لطاعة الله فيكون أعتق نفسه ومنهم من غامر في الذنوب فيكون ممن أهلك نفسه

فهذا الحديث من أجمع الأحاديث التي جمعت فضائل الأعمال وكل عمل فيه ذكر فضله عند الله .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن ينفعنا بما علمنا سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه